



OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 8-12-2022

تاريخ القبول: 10-1-2023

## أزمة القيم الحديثة والحاجة إلى الأخلاق الإيمانية:

### قراءة في فلسفة محمد عزيز الحبابي

محمد الجلابي<sup>(1)</sup>

[Mohamed.eljilali88@gmail.com](mailto:Mohamed.eljilali88@gmail.com)

#### مُلخَص:

يتناول هذا البحث مسألة "نقد القيم في فلسفة محمد عزيز الحبابي"، من خلال تحليل مؤلفه "أزمة القيم" الذي حاول من خلاله الإسهام في تشييد خطاب فلسفي نقدي حول وضعية الإنسان المعاصر، انطلاقاً من تشخيص الواقع والكشف عن تناقضاته إلى جانب إبراز تهاافت الخطابات الإيديولوجية المنتجة حوله، خاصة نقده لخطاب وممارسة الفلسفات العربية المادية، مع اقتراح بدائل نظرية وعملية للحد من خطورة الأزمات الأخلاقية. مقترحات تتغذى بإبداعات العقل الإنساني قبل أن تُضلل الإيديولوجيا، وتُدعم بالطاقات الخلاقة للإيمان، التي يُفترض أن تخلق الانسجام بين الأفراد على المستوى الكوني على الرغم من الاختلافات الموجودة بينهم. وتوصل إلى ضرورة تقدير القيم، وتثمينها، وترسيخها على مستوى الخطاب والممارسة، وأنه لا يمكن القضاء على أزمة القيم دون امتلاك مقومات تشخيصها. وأن للإيمان دوراً أساسياً في حياة الإنسان؛ فهو وحده الكفيل باحتضان القيم الإنسانية وتنميتها.

#### الكلمات المفتاحية:

القيم، الإيمان، النقد، الإنسان، الفلسفة.

(1) دكتوراه في الفلسفة. (المغرب).

للاقتباس: الجلابي، محمد، أزمة القيم الحديثة والحاجة إلى الأخلاق الإيمانية: قراءة في فلسفة محمد عزيز الحبابي، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مع 7، ع 1، 2023، 20-49.

© نشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص تنزيل البحث وقراءته والتصرف فيه مجاناً، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان إذا ما قد أُجرى عليه أي تعديلات، ولا يمكن استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

## OPEN ACCESS

Received: 8-12-2022

Accepted: 10-1-2023



## The crisis of modern values and the need for Islamic ethics: a critique of the philosophy of Muhammad Aziz al-Hababi

Mohamed Eljillali<sup>(2)</sup>[Mohamed.eljilali88@gmail.com](mailto:Mohamed.eljilali88@gmail.com)

### Abstract:

This article examined the values in the philosophy of Muhammad Aziz AL-Habbabi through an analysis of his book, "The Crisis of Values", through which he contributed to the creation of a critical philosophical discourse on the reality of contemporary man by giving a diagnosis of such reality and disclosure of its contradictions, as well as highlighting the incoherence of the ideological discourses produced on it, more specifically his criticism of discourse and the practice of Arab materialistic philosophy. Al-habbabi also proposed theoretical and practical alternatives to reduce the risks of ethical crises. His proposals are fed by the creativity of human mind before getting misled by ideology, and are supported by the innovative powers of faith which are supposed to create harmony between people in the globe regardless of their differences. Al-habbabi concluded that values should be assessed, evaluated and established in theory and practice; that value crisis cannot be eliminated without having the means of diagnosis; and that faith

has a vital role in human life which is alone capable of taking care of and developing human values.

### Keywords:

Man, Philosophy, Criticism, Faith, Ethics, Values .

(2) PhD of Philosophy, (Morocco)

Cite this article as: eljilali, Mohamed, The crisis of modern values and the need for Islamic ethics: A critique of the philosophy of Muhammad Aziz al-Hababi, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 7, issue 1, 2023 20-49.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

## مقدمة:

تتأطر هذه المقالة على المستوى النظري في سياق الاهتمام بسؤال العقل العملي، وتسلب الضوء على مفهوم محوري في فلسفة الأخلاق؛ يتعلق الأمر بمفهوم القيم، من خلال الوقوف على تصور الفيلسوف محمد عزيز الحبابي لماهية القيم، وكشف النقد الذي وجَّهه هذا الأخير للقيم الحديثة، التي سعى إلى إبراز قصورها مع اقتراح البديل المناسب لها.

وتجدر الإشارة إلى أن أسباب خوض مغامرة الكتابة في هذا الموضوع متعددة؛ وترتبط أساساً براهنية التفكير النظري في مسألة القيم على المستوى الكوني، وبالرغبة في إعادة إثارة سؤال القيم من داخل التصور الفلسفي الإسلامي، الذي تجسده في هذه المقالة- شخصانية محمد عزيز الحبابي (1923-1993) الذي سعى بدوره إلى مقارنة سؤال القيم؛ حيث قاس درجة تقدم المجتمع بمعيار أخلاقي لا ينظر إلى التقدم والتطور التقني في صيغته الكمية، كمرجع للحكم على ازدهار الحضارة وتقدمها، وإنما يولي اهتماماً بالغاً لما هو أخلاقي قيمي، باحثاً في أهم الأزمات التي تخترق حياة الإنسان المعاصر وتؤثر على حياته اليومية في الفضاءين العام والخاص.

فما معنى العنوان الذي جعلناه موضوعاً لهذه المقالة إذن؟- أزمة القيم الحديثة والحاجة إلى الأخلاق الإيمانية، قراءة في فلسفة محمد عزيز الحبابي- إذا لم يكن تأكيداً مباشراً على أزمة القيم في المجتمع المعاصر، وتشديداً على ضرورة تعويضها بأخلاق إنسانية يكون الإيمان مصدراً أساسياً لها، هذا المصدر الذي سنقف على بعض مظاهره الخلاقة كما تبلورت في فلسفة محمد عزيز الحبابي. لكن تساؤلنا ونحن نتحدث عن «أزمة القيم» يتضمن إشكالية خفية حاولنا قدر الإمكان استقصاء أبرز عناصرها ونحتها في الصيغة التالية: إذا كان المجتمع المعاصر يعيش على وقع أزمة متعددة الأبعاد، فما هي مظاهر هذه الأزمة على المستوى القيمي؟ وكيف قارب محمد عزيز الحبابي مسألة القيم؟ وما هي المبررات التي تُشرعن لنا إعادة التفكير في قضية القيم في سياق كوني مُعولم ومتأزم؟ وأين تتمظهر أزمة القيم؟ هل في الخطاب أم في الممارسة؟ وما هي الحلول التي اقترحها الحبابي للتقليل من خطورتها؟ وما قيمة التأملات الأخلاقية للحبابي هنا والآن؟ وما العبرة التي يُمكن تعلمها من النقد الأخلاقي للمجتمع المعاصر كما برز في تأملات الحبابي؟ وهل يُمكن التفكير في مسألة القيم بشكل موضوعي دون استحضر الخطاظة الذهنية للفلسفة الغربية؟ وإلى أي حد يُمكن لصوت ثالثي قادم من الهامش العمل على إعادة صياغة الخطاظة الذهنية لمن يُنصب نفسه في المركز؟

أما على مستوى المنهج، فإن أغلب الإشكالات التي أثارناها، سعيينا إلى الإجابة عنها من داخل متن الحيايبي، وخاصة كتابه «دفاتر غدوية، أزمة القيم»، لذلك جعلنا منهج تحليل المضمون، الركيزة المعتمدة في الكتابة، حيث حاولنا-قدر المستطاع- كشف المعاني والدلالات التي تحملها المفاهيم والألفاظ والجمل التي شيد بها الحيايبي نصه، من خلال محاولة تأويل هذا النص من جهة والكشف عن مُختلفات طبقات معانيه، مع الحرص على مقارنته ببعض التعليقات المُستمدة من نُصوص أخرى انهجست بنفس القضية، وفاء لمنهج الفلسفة القائم على النقاش والنقد وعلى إبراز الاختلاف.

## المحور الأول: مفهوم القيم من الدلالة إلى الإشكال

يُعد التفكير في موضوع القيم اهتمامًا مُتجددًا ومسألة دائمة الراهنية مُتعددة المقاربات والمناهج، ومُتباينة المواقف والرؤى. وتندرج هذه القضية في صُلب النقاش الفلسفي الأخلاقي؛ الذي تُثار فيه أسئلة العقل العملي، المنهجس بنُشدان الانسجام والتناغم بين أفراد المُجتمع؛ بُغية الحرص على ضمان التوافق بين الفرقاء في سياق ثقافي واجتماعي قائم على التعدد والاختلاف لا على الصراع والخلاف. ومن أجل استجلاء مُختلف أبعاد مفهوم القيم، ومُبررات مقارنة هذا المفهوم في فلسفة مُحمد عزيز الحيايبي، ارتأينا الحديث في مقام أول عن معنى القيم على المستوى الاصطلاحي والفلسفي (المبحث الأول)، والانتقال في مقام ثانٍ للوقوف على السياق التاريخي والثقافي، الذي تبلورت في إطاره تأملات الحيايبي حول هذا المفهوم (المبحث الثاني)، بينما سنخصص المبحث الثالث لكشف المجهود الذي بذله الفيلسوف العميد لمساءلة هذا الموضوع، وتوجيه اهتمام الإنسان في العالم الثالث للاهتمام به، من أجل تأسيس قواعد جديدة للتضامن الإنساني.

## المبحث الأول: في دلالة مفهوم القيم

يعتبر مفهوم القيم من أهم المفاهيم التي انهجس بها التفكير الفلسفي مُنذ مرحلته التأسيسية إلى الآن؛ بل إننا لن نُجازف إذا اعتبرنا بأن القيم هي النُقطة المرجعية التي تعود إليها كل القضايا الفلسفية. فإذا تأملنا المباحث الكبرى للفلسفة، فإننا نجد بأن مبحث القيم واحدٌ منها. وإذا تفحصنا كل مبحث بشكل مُستقل، فإننا سنكتشف بدون أي عناء بأن القيم هي الخلفية المعيارية التي تنتظم فيها كل هاته المباحث (الوجود، المعرفة، الأخلاق)، نظرًا لأن القيم لا تنفصل عن المعرفة والحقيقة، كما أنها لا تحيد عن الأخلاق، ولا تنفصل عن السلوك الإنساني قولًا وعملاً، وعن التفاعلات بين الأفراد، كما أن

سعادة الجماعة السياسية لا يُمكن أن تتحقق في غياب الأخلاق والقيم. فما المقصود بالقيم؟ وما منزلة القيم في العلاقة الحتمية بين الفرد والمجتمع؟

يرى «جون بيير أوبين» في المعجم الموسوعي للتربية والتكوين أن القِيم جمع قيمة، وتحمل ثلاثة معانٍ مُتكاملة على الأقل<sup>(3)</sup>:

- السمة المميزة لشخص أو شيء بناء على تقدير معين؛ تجعله مرغوباً فيه، سواء من مدخل الاحترام والتقدير كما هو الشأن بالنسبة للأشخاص، باعتبارهم غايات، أو من مدخل الاستعمال والاستخدام، كما هو حال الأشياء بوصفها وسائل.
- خاصية شخص أو شيء في حد ذاتهما؛ أي: القيمة التي يكتسبها الشيء أو الشخص بناء على خصائصه الذاتية، وبغض النظر عن المواقف المبنية حوله.
- خاصية شخص أو شيء بالنظر لتجسيده لقيمة معينة. وفي هذا المستوى من الدلالة يكتسب الشخص أو الشيء قيمته انطلاقاً من الدور الذي يلعبه، والقيمة التي يُعبر عنها في سياق اجتماعي وثقافي له خصوصياته. ومن هنا الطابع النسبي والمتغير للقيم.

وقد ورد في المعجم الفلسفي بأن القيم هي «تلك المبادئ التي يجب أن تتوافق معها طرق وصيغ التفكير والحكم أو السلوك أو الفعل، والتي يُدركها الأفراد بوصفها مُثلاً عُليا. وهناك ثلاث قيمٍ عُليا تنتمي إلى المبحث الفلسفي الخاص بالقيم (الأكسيولوجيا)، وهي الحق والخير والجمال»<sup>(4)</sup>، وهي في مُجملها قيمٌ تحتاجها الجماعة السياسية؛ لخلق الانسجام بين الأفراد، فالحق مطلوب لذاته بوصفه قيمة أخلاقية، ومطلوب لوظيفته باعتباره تجسيدا للصدق وللحقيقة، بينما يستمد الخير قيمته من كونه غايةً سامية، يسعى إليها الفرد سواء كان مدفوعاً بفطرته الخيرة، أو كان مُوجها بتعاليم المجتمع، في حين يستمد الجمال مشروعيته من كونه قيمةً إنسانية كونية، تُناقض القُبْح وتُنشد تهذيب الذوق الإنساني؛ أي: إضفاء البُعد الجمالي على الأحكام والأفعال في الوقت نفسه.

ويُعرّف جميل صليبا القيمة بكونها صفةً تُطلق على «كل ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته؛ لاعتباراتٍ اقتصادية أو سيكولوجية، أو اجتماعية أو أخلاقية أو جمالية»<sup>(5)</sup>، وهذا يعني أن للقيمة

(3) Jean Pierre Aubin, Dictionnaire encyclopédique de l'éducation et de la formation, Nathan université, Paris 1981, pp 1025, 1026.

(4) أوزي، أحمد وآخرون، المعجم الفلسفي للمتعلمين والمتلمات بالتعليم الثانوي، منشورات مجلة علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، الطبعة الأولى، 2018، ص 114.

(5) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1973 ص 212.

أبعادًا متعددة، تختلف من مجالٍ إلى آخر. وهي عبارة عن «تفضيلاتٍ جماعيةٍ يُمكن اقتسامها، أو عدم اقتسامها من طرف أشخاص ومجموعات اجتماعية»<sup>(6)</sup>.

يبدو من خلال ما سبق، أن القيم تُعبر عن مجموعة من المبادئ التي توجه السلوك الإنساني وتقوي العلاقات بين البشر، وتُكسب الحياة معنى يسهم في الحفاظ على تماسك المجتمع، ويعمل على تجويد شروط التفاعل بين أفرادها، وهذا يعني أن القيم عبارة عن مبادئ سامية، وقواعد تُثلى تُؤطر اتجاهات (Attitudes) الأفراد وتُهدب أفعالهم الإنسانية وتُعقلنها؛ بحيث يفتح الفرد على مصير الإنسانية جمعاء؛ إذ يتحمل مسؤوليته تجاه ذاته من جهة، ومسؤوليته تجاه الناس من جهة أخرى؛ حيث تلعب القيم دورًا مهمًا في تقوية العلاقات بين الناس كما أنها تُضفي على الحياة الاجتماعية معنى أخلاقيًا وإنسانيًا كونيًا، غايته السهر على انسجام المجتمع، وعلى توافق الفاعلين في إطاره، بغض النظر عن قناعاتهم الفكرية، ومعتقداتهم الدينية، وانتماءاتهم الجغرافية.

## المبحث الثاني: تفكير الحبابي في أزمة القيم، التاريخ والسياق

لم يكن باستطاعة أي دارس -ثالثي- خوض مغامرة البحث في موضوع القيم الإنسانية، في سياقٍ كونيٍّ مُعولمٍ موسومٍ بتفاهم النزعات المادية على مستوى الخطاب والممارسة، دون أن يجعل من نفسه قبلة لحملة انتقادات واتهامات واسعة، وموجهة بخلفيات إيديولوجية مُتعددة، تلبس رداءً الحداثة أحيانًا ورداء الأخلاقية والكونية في أحيانٍ أخرى، من قبيل وصمه بالرجعية والاختزالية وبمناصرة النزعة الأخلاقية الضيقة والمُنغلقة -طبعًا حسب المعايير التي يضعها من ينتقد، والذي غالبًا ما ينصب نفسه مرجعًا لصياغة خطاب الحقيقة مُتهمًا خصومه بالقصور ومُثبتًا ذاته في وضعية الرشد وفي درجة اليقين؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه-<sup>(\*)</sup> فماذا سيكون رد فعل مثقفٍ ثالثي وافد من الأطراف؟- هو حال الحبابي- إن الغرب يقدم له إما أطباقًا من المثالية الحاملة التي تنكر وجود العالم الخارجي، أو موائد من فلسفات ومذاهب ذات نزعة إنسانية ظاهرية، لكنها في العمق، مُغرقة

(6) بورقية، رحمة وآخرون، التقرير التركيبي للبحث الوطني حول القيم، 50 سنة من التنمية البشرية RDH5 الرباط، 2006.

(\*) يرى الحبابي أن المشهد الثقافي يعيش على وقع تبادل الاتهامات بين مُختلف التيارات، وهو ما يعني أن هناك سوء فهمٍ تولد عنه سوء التفاهم؛ إذ "يخلط المثاليون بين مادية وأبيقورية، في معنى قدي: مادية لا تبحث إلا عن ملذات الحياة النباتية، لا مبدأ لها ولا أفقًا معنويًا، قيمها أن ترضي أكثر ما يُمكن من الشهوات الهيمية...ومن الماديين، بدورهم، من يرمون المثاليين بالرجعية والتخلف عن ركب التقدم، وكل مثالي النزعة إنما هو عميل للرجوازية والامبريالية، وذو ذهنية أسطورية...ويحشرون في المثالية الإيمان بالمعنويات وبالتعالى وبأخلاق مُنبثقة عن الدين". محمد عزيز الحبابي، دفاثر غدوية، الدفتر الأول، أزمة القيم، منشورات، دار المعارف، القاهرة، 1991، ص53.

في التشاؤم والعبث، تنكر لقضايا الإنسان الحقيقية، بما فيها قضايا إنسان المجتمعات المُحتلة<sup>(8)</sup>؛ التي كانت-ولا زالت- مصدرًا للثروة ومجالاً لممارسة الهيمنة والسلطة، ولإشباع رغبة الغربي في التفوق والاحتفاء بذاته كسيّد أبيض يمتلك معايير الحقيقة وأسرارها.

لكن على الرغم من كل الإغراءات والصعوبات السالفة، حمل الفيلسوف/ العميد على عاتقه مهمة التفكير في مسألة الأخلاق، موجّهًا تأملاته نحو الاهتمام بأسئلة العقل العملي الأخلاقي؛ الذي يبحث عن قواعد معيارية كونية: لتحقيق الانسجام بين مُختلف الإرادات بغض النظر عن الانتماء والجنس والمعتقد. وهو ما تجسد في أعماله المتأخرة، وخاصة في الدفتر الأول من مؤلفه «دفاتر غدوية»؛ الذي قارب فيه مسألة أزمة القيم، والذي أتبعه سنة 1982 بدفتر ثانٍ مُعنون بـ «أزمة النماذج».

إن القاسم المُشترك بين الدفتريين السالفين كما يوحي بذلك عنوانهما، هو الانكباب على دراسة الأزمة سواء على مستوى الممارسة (أزمة القيم)، أو على مُستوى النماذج الفكرية الموجهة لمنظور الإنسان لذاته وللكون (أزمة النماذج). يبدو من خلال جمع الحبابي بين أزمة القيم وأزمة النماذج، بأنه على وعي كبير بأن أزمة الواقع لا تنفصل عن أزمة الخطاب، فعلى الرغم من تأثر الخطاب بالسياقات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تُساهم في إنتاجه، إلا أنه يُمكن أن يساهم في التعبير عن الواقع إذا التزم شرط الموضوعية، أو يعمل بخلاف ذلك على أدلجته وتحريفه إذا وجهته أهداف مصلحة ضيقة.

لقد أثار الحبابي سؤال القيم في مطلع الثمانينات؛ أي: في مرحلة تاريخية وُسّمت بالتنظير لأغلب الأزمات التي يُعاني منها الإنسان المعاصر، باستثناء أزمة القيم الأخلاقية. وهو ما أكدّه بقوله: «أزمة لفظ يروج كثيرًا، ويُستعمل في أغلب الأحوال بصيغة الجمع: أزمات اقتصادية، مُجتمعية، أزمات سياسية، وأخرى عصبية أو نفسانية. بيد أنه قلّمًا يتحدث عن أزمة/ أزمات أخلاقية وروحية»<sup>(9)</sup>. مع ما تُشكله من مخاطرٍ جسيمةٍ على حياة الإنسان، سواء تعلق الأمر بتجربته الوجودية الذاتية (الاكتئاب، التوحّد...)، أو بتفاعله مع باقي أفراد المُجتمع الإنساني (العنصرية، التصعب...).

أمام هذا التجاهل غير المُبرر لمُقاربة الأزمات الأخلاقية، حاول الحبابي أن يسدَّ هذا الفراغ النظري حتى يلفت انتباه معاصريه إلى مظاهر الأزمات الأخلاقية في المجتمع المعاصر في أفق التقليل من حدتها،

(8) يفوت، سالم، الهاجس الثالثي في فلسفة محمد عزيز الحبابي، ضمن كتاب دراسات مغربية مُهداة إلى المُفكر المغربي محمد عزيز الحبابي، منشورات جمعية البحث في الآداب والعلوم الإنسانية، المركز الثقافي العربي، طبعة مزيدة ومنقحة 1987، ص 24 (بتصرف).

(9) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 7.

أو على الأقل كشف الخطابات الإيديولوجية؛ التي تُساهم في تولديها وتداولها على مستوى البنيات الاجتماعية. ولكي يُحقق المُراد من وراء هذه المُغامرة الفكرية الأصيلة كان عليه أن يبني طرحه بالعمق والنضج المطلوبين في أية مُقاربة فلسفية نقدية، بأفق غدوي للوضع الأخلاقي في المُجتمع المعاصر؛ حيث دخل الحبابي في حوار سجالي، حجاجي، نقدي مع خصومه؛ بُغية دفعهم إلى مُراجعة أحكامهم الجاهزة حول الإنسان والمُجتمع، ومن ثمّ تنفيذ تصوراتهم، وكشف تهافت حججهم وبطلان دعواهم، وقصور نظيرهم لوضعية المُجتمع المعاصر؛ على اعتبار أن الفكرة تستمد قيمتها من وجهة ومقولية الحُجج المعتمدة في تدعيمها، فما بهم في الفلسفة ليس الأطروحة في حد ذاتها وإنما طريقة البرهنة والمُحاجة عليهما. وهو الأمر نفسه الذي ينطبق على الحبابي؛ الذي لم يكن أول من قارب سؤالات الأخلاق فلسفيًا في السياق العربي الإسلامي، لكنه مع ذلك تفرد في تناوله للموضوع من داخل شخصانيته الإسلامية؛ التي حاول من خلالها إبراز أهمية التصور الإسلامي للإنسان، والكشف عن أبعاده الكونية.

### المبحث الثالث: أزمة القيم من الاستشكال إلى مُحاولَة الفهم

حاول الحبابي من خلال أعماله الفلسفية «بلورة مسائل تتعلق بمصير العالم، وأوضاع العالم الثالث، وهي مسائل تستهدف التفكير في تناقضات العالم المعاصر، وتقترب إعادة تأسيس قواعد جديدة للتضامن الإنساني، بمعايير اجتماعية وأخلاقية، ومن منظور تحرري يركب النظر بالاعتماد على معطيات نفسية ووجودية»<sup>(10)</sup>، تدفع في اتجاه إعادة الاعتبار للقيم، وجعلها الأساس الذي تقوم عليه مُجمل تفاعلات الأفراد في كل بنيات المُجتمع. لكن قبل ذلك، العمل على تشخيص وضعيتها بالشكل الذي يسمح بالانتقال من وضع الأزمة إلى حالة الانفراج. فكيف قارب محمد عزيز الحبابي هذا الموضوع الساخن؟ أي كيف نظر لمسألة أزمة القيم؟ وما هي البدائل التي اقترحها للتقليل من حدتها؟ حينما تناول الرجل مسألة أزمة القيم، لم يُقارِبها بمعزلٍ عن السياق العام لدول العالم الثالث؛ التي كانت تعيش-ولا زالت- على وقع التأخر الحضاري والتاريخي بفعل العديد من العوامل الداخلية والخارجية؛ نذكر منها عاملين أساسيين:

(10) كمال، عبد اللطيف وآخرون، محمد عزيز الحبابي الشخصانية والغدية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2015م ص 10.



• عامل سياسي/عسكري: يرتبط بالاحتلال<sup>(\*)</sup> إذ «كان من البديهي أن يستبد به هاجس الاعتراف بالثالبيين وبمعذبي الأرض باعتبارهم أشخاصًا لهم الحق في تقرير مصيرهم بأنفسهم، لا ككائنات مُسخرة من طرف الغير، يُشكلها الاستعمار حسب أهوائه ومشئته، وتعيش تاريخًا غير تاريخها»<sup>(12)</sup>؛ حيث جسّد الحبابي صورة الفيلسوف المنقذ؛ الذي باستطاعته تفكيك الخطاب المثالي والحالم؛ الذي روّجَه الغرب، والعمل في مُقابل ذلك على إنارة طريق المُجتمع نحو التحرر من خلال المُقاومة الروحية والأخلاقية من جهة، وعبر ما يبدعه العقل الثالثي من معارف ونظريات من شأنها تقويض المركزية الغربية من جهة أخرى.

وعامل ثقافي يتعلق بنقد الإيديولوجيا المتحكمة في بناء الخطاب الثقافي والأخلاقي؛ إذ لم تصدر مُقاربتَه/ الفلسفية عن منظور أخلاقي مُنغلق، وأحادي، ومُتمركز على الذات، وعلى الهوية الوطنية، كما كان حال أغلب مُعاصريه، على اعتبار أنه شن هجومًا حادًا على العقلية التجزيئية والإقصائية المنشغلة بافتعال الثنائيات الضدية على مستوى التنظير، وتجسيدها على صعيد الممارسة. ويُلخص الحبابي هذه الثنائيات في «أربع أزواج هي: التصور- الصورية؛ المحتوى- الشكل؛ الواقع المادي؛ الواقع الوجداني؛ المادية- المثالية»<sup>(13)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن الحبابي لم يتحدث عن أزمة الأخلاق من خلال استخدام خطاب التعميم، وإنما أشار إلى دينامية مركبة من المُعضلات تتناسل من خلالها الأزمات بشكل مُتجدد، كما أنها تخترق كل بنيات المجتمع الإنساني؛ حيث «زاغت الغرائز وشرع الشباب العالمي يستيقظ متوترًا غاضبًا [...] انتشرت المُخدرات بالجامعات، والمدارس الثانوية... تلوثت البيئة، وجدانيًا، وجغرافيًا، وتاريخيًا، ومعنويًا، وحل الحزن والسفَه، محل الشرد والانطلاق»<sup>(14)</sup>. وهو الوضع الذي هدد حياة الإنسان، وأمنه الجسدي والروحي في نفس الوقت.

وفي هذا الإطار تحتل أزمة القيم موقعًا محوريًا؛ على اعتبار كونها تعكس واقع الحضارة الغربية المهيمنة، المهووسة بالزعة التقنية، التي رفعت من قيمة المكون المادي الحيواني<sup>(15)</sup> في الإنسان ومنحته الأولوية،

(\*) استعملنا لفظ الاحتلال عوض لفظ الاستعمار الذي استخدمه الحبابي في مؤلفه؛ لأن الاستعمار على وزن استفعال؛ يعني طلب الإعمار، وهذا معناه أن الاستعمار يتم بشكل سلمي على بنود يتوافق عليها المستعمر والمستعمر، في حين أن الاحتلال في السياق المغربي ارتبط باستخدام القوة العسكرية وتم ضد إرادة الحاكم والشعب.

(12) يفوت، سالم، الهاجس الثالثي في فلسفة محمد عزيز الحبابي، مرجع سابق، ص 22.

(13) محمد عزيز، الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 52.

(14) المصدر نفسه، ص 48.

(15) يُفر الحبابي بأن للإنسان جانبًا حيوانيًا، لكنه قابل للترويض والتهديب عن طريق التربية؛ حيث يقول: «حقًا للإنسان «حياة =

وأقصت في مُقابل ذلك البعدَ الروحيَّ والمعنوي، ونفت دوره في إضاءة ضمير الإنسان وتوجيه سلوكه؛ إذ يبدو كأنها تتبع خطى فاوست، وتتقفى آثاره المضللة. هذا الأخير «الذي باع روحه لميفسطوفيليس الشيطان المريد، مقابل تكنولوجيا زائفة ولذات لا تنتهي»<sup>(16)</sup>. ومن رحم هذه الحضارة المُشيطنة وُلدت أغلب الفكرولوجيات؛ التي سلكت نفس النهج، وأقصت القيم والأخلاق، وهمشت البعد الأخلاقي للوجود الإنساني؛ بمعنى أنها استبعدت كل ما هو روحي من العالم، وأسست حياة الإنسان على ما هو مادي وتقني صرف. كأنها تبتغي بذلك نزع الطابع السحري أو العجائبي عن العالم، إذا جاز لنا استعمال مقولات ماكس فيبر في تنظيره للعقلانية الغربية؛ التي أقامت صرحها العلمي والتقني على حساب الفراغ الروحي للإنسان، مما جعلها عُرضة للعديد من الانتقادات، خاصة من قبل من يرفع سلاح المقاومة الروحية للتقليل من حدة الأزمات المتناسلة من رحم العقلانية، كما هو الأمر بالنسبة للحبابي؛ الذي لاحظ بأن «تقدم المعارف العملية وازدهار التكنولوجيا قد صاحبا تضرع القيم الأخلاقية وتهافتها»<sup>(17)</sup>؛ إذ تكمن مفارقة الحداثة في اعتبارها تقدماً تقنياً وفاقاً إنسانياً وروحياً في نفس الوقت؛ حيث تكون للتقدم آثاره العرضية مثله كما الدواء؛ إذ يُساهم في تجويد شروط عيش الإنسان، لكنه يؤثر على تفاعلاته وقيمه وعلى نظرتة لذاته وللآخرين. لقد أفرز التطور التقني وضعاً مضطرباً على المستويين القيمي والأخلاقي، لذلك اقتضت الحاجة نقده وإعادة التفكير فيه، بحثاً عن أفق جديد للحياة الإنسانية خارج النظرة التقنية والعلموية للعالم.

وتندرج الشخصية<sup>(\*)</sup> الإسلامية للحبابي في سياق المقاومة الفكرية للأفق المحدود للتحديث؛ حيث أثمرها على أعمال العديد من الفلاسفة<sup>(19)</sup>؛ الذين أجمعوا على أن أزمة المجتمع المعاصر لها أبعاد فردية وجماعية، تُلقى بظلالها على مُختلف بنيات المجتمع. ومن ثمة ضرورة تكثيف الجهود المعرفية لاكتشاف الأزمة وترميزها، والوقوف على تجلياتها على مستوى الفكر والسلوك. وهو العمل نفسه الذي قام به

= نباتية» كما للحيوانات، وحياة جوانية يختص بها، وكلما رجحت كفة إحدى الجانبين، انحرفَ عن الاتزان والتكامل وعن الانسجام الطبيعي. لذلك، إن التربية في المدرسة والبيت والمجتمع، على العموم مطالبة بأن تعلم الأفراد الحرص على اعتدال الكفتين». انظر: محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، ص 43.

(16) المصدر نفسه، ص 8.

(17) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 39.

(\*) الشخصية: مذهب فلسفي يرى أن الشخص الإنساني كائن مُتميز عن غيره من الكائنات وهو يتميز بخصوصية الفرد وسماته العقلية والوجدانية والجسمية الخاصة، وأنه لا سبيل إلى إرجاعه إلى ما يُماثله أو يشبهه. من رواد الفلسفة الشخصية في فرنسا إيمانويل موني، وفي المغرب محمد عزيز الحبابي، وفي لبنان رينيه حبشي الداعي إلى الشخصية المتوسطة.

(19) يُمكن الإشارة على سبيل المثال لا الحصر إلى مؤلفات إدغار موران خاصة :

كتاب: إلى أين يسير العالم، ترجمة أحمد العلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 1430 هـ- 2009  
كتاب: في مفهوم الأزمة، ترجمة بديعة بوليلة، دار الساق، بيروت، الطبعة الأولى 2018.

- صاحبنا في مؤلفه «أزمة القيم»؛ حيث قارب موضوع القيم من خلال الوقوف على العناصر التالية:
- إبراز مظاهر أزمة القيم الأخلاقية في المجتمع المعاصر؛ وخاصة في القرن العشرين؛ المثخن بالجراح، والمثقل بالتجارب المشينة للذات الإنسانية والمشينة لها، مع الإلحاح على ضرورة البحث عن سبل ناجعة للقيام بعملية الإنقاذ.
  - نفي التناقض والتعارض بين القيم والعلم<sup>(20)</sup>، والعقلانية والواقعية، والتشديد على تكاملهما، من خلال الوقوف على مُختلف صور استبعاد القيم؛ والتحرّيز في مُقابل ذلك على ضرورة تقديرها، وتثمينها، وترسيخها على مستوى الخطاب والممارسة (الصدق-الإيثار)؛ أي: نقلها من دائرة النظر العقلي التأملي، إلى دائرة الممارسة العملية، من الكلمات إلى الأشياء.
  - إعادة دمج القيم في النسق المعرفي والسياسي والثقافي، من خلال إعادة الاعتبار للإيمان؛ بوصفه طاقة روحية وخلاقة مؤنسنة للعالم.
  - تقديم مقارنة فلسفية شاملة، تُقارن وضعيّة القيم بين الدين والفكرولوجيات الوضعية في سبيل التوفيق بينهما.

## المحور الثاني: مظاهر أزمة القيم في المجتمع المعاصر وموقف الحبابي منها

سنحاول في هذا المحور الوقوف أولاً على أهم الأزمات الأخلاقية؛ التي تسود حياة الإنسان المعاصر حسب الحبابي، مُنطلقين من الأزمات التي تتمظهر على مستوى النفس (المبحث الأول)، مروراً بالأزمات التي تتجلى على صعيد السلوك (المبحث الثاني)، وصولاً إلى الأزمات التي لها مظاهر تفاعلية (المبحث الثالث)، مع الانتهاء أخيراً إلى إبراز وجهة التصور الإسلامي وفعاليتها؛ في تشخيص أزمة القيم من جهة، والتقليل من حدتها من جهة ثانية.

(20) يرى محمد عزيز الحبابي «أن العلم لا يحل المشاكل التي يضعها الدين أو توضع عليه أو عنه، كما أن الدين لا يُمكنه أن يتدخل في شؤون العلم. أما نُقطة الالتقاء فهي أن العلم يعمل على تقدم المعرفة لمصلحة الإنسان (المتدين وغير المتدين). أما الدين فيدعو للسلام وللسلم ويُعلم مكارم الأخلاق وتقديس الكرامة والمروءة، ويجنر المحبة ويمرن على صدق الوجود وعلى الصدق في المعاملات بين جميع الناس». محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 63، 64.

## المبحث الأول: الكذب أول مظهر لأزمة القيم

يعتبر شيوع الكذب في كل مناحي الحياة الإنسانية من أبرز مظاهر أزمة القيم؛ حتى تطبع معه المجتمع، وأضفى عليه المشروعية بمبررات مُتعددة، تمتزج بالعلم تارة، وبالخرافة والأسطورة تارة أخرى، وبالاقتصاد والسياسة في أحيان أخرى؛ إذ لم يعد الكذب من الممارسات المردولة والمرفوضة؛ بل أصبح من الممارسات المقبولة والمُعترف بها؛ حيث ارتفع «إلى مستوى عرفٍ مُجتمعي قاعدي، وكأنه من المبادئ المُعترف به (باسم المصالح العامة العليا) فانشقت الأخلاقيات»<sup>(21)</sup> وانخفض منسوب الصدق في المجتمع، وتفشت مشاعر الحقد على الغير، والرغبة في إيذائه والهيمنة عليه؛ وأضحى الكذبُ قوةً تصرف في منافع أنانية، إلا أن هذه الأنانية لم تعد فردية معزولة، ومحدودة التأثير؛ بل شملت مجموع أفراد المجتمع، إنها عدوى شاملة مست كل بنيات المجتمع، واخترقت جل مؤسساته. لقد أصبح الكذب من الأعراف السارية المفعول، فالكذب الناجح علامة على النباهة، كما يعد من امتيازات القوم الراقبين ذوي حدة الذهن... والجامع المشترك بين الكذبة الراقية وغير الراقية، هو كون الجميع يعتقدون أن القاعدة الأساسية في العلاقات العامة، هي الحذر من الغير<sup>(22)</sup>؛ بوصفه مصدر تهديد للجماعة. إنه الخطر الذي يحقد بالمجتمع، ومن المُحتمل أن يُهدد استقراره في أية لحظة.

يبدو من خلال ما سبق أن الكذب -بكل أشكاله وأطيافه- قد أخلّ بتوازن المجتمع، وساهم في تفكيك العلاقات الإنسانية، وفي تضاعف وتضخم النزعات الأنانية والشوفينية<sup>(\*)</sup> المُعلنة والخبفية. ف«كلما ابتعد الفرد عن القيم الشمولية، وخضع لسلطان الأنانية، والشوفينية، والتعصب، تفككت عُرى التواصل، والتعاون، والتآخي... والكرامة الإنسانية تكمن في المحافظة على انسجام كل أبعاد الكائن البشري (المادية والفكرية والروحية)»<sup>(24)</sup>. وأول خطوة لحماية كرامة الإنسان، وصيانة حقوقه، هي التزام الصدق، ومحاربة الكذب، والانسجام مع المعايير الأخلاقية الكونية؛ المؤسسة على مبادئ العقل المتجرد من كل إيديولوجية إقصائية وتشويهية.

(21) محمد عزيز الحبابي أزمة القيم، مصدر سابق، ص 13.

(22) المصدر نفسه، ص 17.

(\*) يعرف محمد عزيز الحبابي الشوفينية بكونها "المبالغة في التعصب لمعتقدات دينية أو سياسية، أو لفلسفة أو لفكرولوجيا، بوثوقية عمياء، وشوفيني كذلك، من يتطرف في الرفض المطلق لأي رأي أو عرف ليس عليه قومه. فالشوفينية تعصب مُتطرف حاقد على الغير؛ لأن هذا الغير مُغاير، لأنه آخر... فالنصرة القومية ليست إلا واحدة من النزعات التي تشملها الشوفينية". المصدر نفسه، ص 18.

(24) المصدر نفسه، ص 8.

إن الصدق هو مفتاح خلاص الإنسان؛ الذي لا تصدق أفعاله إلا بصدق طويته ونواياه، فمن العلامات الدالة على سلامة المجتمع، وعلى حكمة أفراده توفر شرط الصدق في الإيمان، والفضيلة في السلوك، وهو ما يتناقض مع الواقع الذي تروج فيه الأكاذيب بكل أصنافها. استنتج الحبابي أن هذا الشيوع الكبير للكذب، بكل أشكاله، في ممارسات الأفراد والجماعات، دليل قاطع على أزمة القيم. فهذه الأخيرة استبعدت من حياة الإنسان، وتم تهميشها بآليات متعددة، تشمل الفكر والممارسة؛ أي: أنها لم تعد تحظى بالأولوية في سياق التنظير لواقع المجتمع، ولسبل تدبير شؤون أفراده؛ حيث أصبحت تُعطى القيمة لما هو مادي اقتصادي؛ إذ راهنت المجتمعات المعاصرة على القوة الاقتصادية؛ لتحقيق التقدم والتنمية، واعتبرت في مُقابل ذلك بأن القيم التقليدية عائقًا أمام النمو والتطور، وهو الأمر الذي يقتضي ضرورة التسلح برؤية نقدية مُزدوجة، تتفحص الخطاب، وتشخص الممارسة في نفس الوقت، وهو المنهج الذي تجسد في دحض الحبابي للزرعة المادية في الفلسفة العربية. وهو النقد الذي سنقف على بعض ملامحه في فقرات لاحقة من هذه المقالة.

## المبحث الثاني: الأنانية المظهر الثاني لأزمة القيم

يتمثل المظهر الثاني للأزمات المعاصرة حسب محمد عزيز الحبابي في الأنانية بمظاهرها المختلفة؛ إذ تعبر الأنانية عن الشطارة والشوفينية، وتعكس الرغبة في الانتصار للهوية الدينية والوطنية، التي تتخذ أبعادًا دوغمائية إقصائية؛ حيث يفترض حب الفرد لوطن كرهه للإنسانية، وقد سبق لتزيفتان تودوروف Tzevtan. Todorv أن تساءل قائلاً ما هي النقيصة المألزمة للوطنية؟ وأجاب قائلاً: لعلها تتمثل تحديداً في أن تفضيل المواطن لوطنه وإيثاره على الإنسانية بأسرها يقوده إلى انتهاك المبدأ الجوهرى للأخلاق، وهو مبدأ الكونية<sup>(25)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن لفظة الأنانية مستحدثة، ولا توجد في المعاجم القديمة؛ التي كانت تتضمن مفهوم الأثرة الذي كان متداولاً في التراث العربي، ف«الأثرة تفضيل للنفس على الغير، وجمع كل خير لها وحرمان الآخرين منه حتى لو كان حقاً لهم، وهنا تلتقي الأثرة مع الظلم لتكون وجهاً من أوجهه»<sup>(26)</sup>. وتكمن الأنانية حسب «أندري لالاند» في تغليب المصلحة الذاتية على مصالح الآخرين، ومصلحة الجماعة؛ بل تعد احتقاراً لما سوى للذات؛ وهذا ما يعني أن الأنانية ضرب لكل القيم النبيلة، وهنا

(25) سببلا، محمد وآخرون، موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، منشورات المتوسط، ميلانو/إيطاليا، الطبعة الأولى 2017 ص 554.

(26) بوعود، أحمد، الأخلاق والإيمان في فلسفة محمد عزيز الحبابي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2021 ص 46.

يكنم خطرهما. وتؤكد الأنانية في مُجتمع يُظهر أفرادُه ميلاً أكبر إلى ضبط سلوكهم، ليس بناء لقيم ومعايير جماعية، وإنما بناء لاختيارهم الحر<sup>(27)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن للأنانية وجهين أساسيين؛ إما استغلال الآخرين وتسخيرهم لخدمة مصالح الذات، وإما تفضيل الذات على الغير، وهو الأمر الذي يؤدي إلى تفكك الروابط الإنسانية، وإلى دفع الإنسان للانعزال، عن المجتمع؛ لأنه غير مؤهل للعطاء وللتبادل؛ إذ تعبر الأنانية عن حالة من الأنوميا<sup>(\*)</sup> الاجتماعية؛ حيث تتفكك الروابط وتنحصر القيم، ويسود نظام التفاهة، وتنتشر الطائفية والعنصرية؛ إذ تم الانتقال من الإنسان المكبل بالخوف من ارتكاب الخطايا في العصر الوسيط، إلى الإنسان المتمركز حول ذاته جغرافياً، وعرقياً، وثقافياً في العصر الحديث؛ حيث تفضيل القومية؛ أي: التحول تدريجياً من الأنانية<sup>(28)</sup> مروراً بالفردانية، وصولاً إلى تقويض مجمل القيم الإنسانية النبيلة. وتؤكد هذه الوضعية المزرية بأن النهضة الإنسانية قد عجزت عن بناء المشترك الإنساني الكوني، بحكم قيامها على المركزية الغربية؛ المُفهرسة على نماذج ثقافية تُقصي الآخر المُختلف دينياً وعرقياً.

### المبحث الثالث: المُزاحمة ثالثٌ مظهرٌ لأزمة القيم

تتقاطع المُزاحمة مع الأنانية وتختلف عنها في الوقت نفسه، على اعتبار أن المُزاحمة احتكار ومطابقة وحسد؛ أي: أنها نقيض التعاون والأخلاق الإنسانية والطبيعة السوية؛ بحيث تُعبر عن الأنانية وتجسد الظلم على مستوى المعاملات الاقتصادية بين الأفراد.

ويتجلى الاختلاف بين المنافسة والحسد، في كون أن هذا الأخير يتعلق بالرغبة في زوال النعمة عن الغير والاستفراد بها للذات، بينما تتضمن المنافسة أبعاداً اجتماعية خلاقة، نظراً لآثارها الإيجابية على تطور الفرد والمجتمع، على عكس المُزاحمة التي لها أبعاد فردية محضه؛ إذ تدفع المُزاحمة إلى العدوان، وتؤدي إلى هيمنة النزعة الاقتصادية على سلوك الإنسان؛ الذي لا تحركه -حسب الحبابي- سوى

(27) رايون بودون و فرانسوا بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة الدكتور سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 2007 ص25.

(28) قد يكون مفهوم الأنانية حديثاً من زاوية المقاربة الفلسفية، غير أن النزعة الأنانية هي جزء من حياة الإنسان القديم؛ أي: أنها وُجدت كحالةٍ نفسيةٍ تؤثر على سلوك الفرد. غير أن الوعي بها واتخاذها موضوعاً للتفكير يرجع أنه ظهر في فترة متأخرة. وعن هذا التلازم بين الوجود الإنساني والأنانية، يكتب ألكسيس دوطوكفيل مقارناً بين الفردانية والأنانية قائلاً: «الفردانية تعبير عن فكرة جديدة ظهرت إلى الوجود. أما في الماضي فد عرف أباًؤنا الأنانية فقط. والأنانية هي الحب الجارف والمُفرط للذات، والذي يحمل الإنسان على اعتبار نفسه فقط، وتفضيلها على الجميع» انظر: ألكسيس دوطوكفيل، الديمقراطية في أمريكا، المجلد 2، 1997، ص127 و128، نقلاً عن: أحمد الخالدي وآخرون، كتاب في رحاب الفلسفة للسنة الأولى من سلك البكالوريا، مسلك الآداب والعلوم الإنسانية، منشورات الدار العالمية للكتاب، مكتبة السلام الجديدة، 2006، ص65.

مصلحته المباشرة. وهو الأمر الذي يؤدي إلى غياب التضامن بين الأفراد وإلى تفكك الروابط الاجتماعية. وترتبط المظاهر الإيجابية للمنافسة كذلك بآثارها الخلاقة على المجتمع بحكم تأثيرها على ما يمتلكه الفرد، ودفعه إلى تمييز قيمته وتطويره، وفي هذا التطوير فائدة عظيمة للمجتمع بأسره؛ حيث تُعد الملكية<sup>(29)</sup> أساس بناء المجتمع المتماسك؛ إذ لا يُمكن أن يشعر الفرد بلذة الحياة ومُتعتها إذا لم يمتلك الثورة ويستفيد من عوائدها وخيراتها. بينما تُعتبر المزاخمة نقيض الأخلاق؛ أي: أنها تؤدي إلى تفكك الروابط الإنسانية بمبرر انسجامها مع حرية الفرد، ومع رغبته في امتلاك الأشياء في سياق تنافسيٍّ بمعايير إقصائية؛ إذ يبدو كأنه مفتوح أمام الجميع بالتساوي، لكنه في الواقع يُلائم فئة قليلة؛ ذات حصانة سياسية، ومقومات مادية، تخول لها إمكانية ربح معركة المنافسة، والاستفادة من عوائدها. لكن ما لاحظته الحبابي هو أن «المجالات مفتوحة، لكن ليس جميع الأفراد مهئينين بالتساوي للمقامرة، فلا ينجح في المزاخمات إلا الأقوياء»<sup>(30)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن المزاخمة بمعناها المعاصر تُعد بمثابة محاكاة لحالة الطبيعة؛ حيث الغلبة للأقوى، وهو ما يؤدي حتمياً إلى انحصار قيم الصداقة، والتعاطف، وتضاعف مشاعر الأنانية. فما هو الحل لتجاوز هذه المُعضلات؟ وما هو السبيل لإعادة الإنسان إلى جادة صوابه؟ كيف يمكن الحد من هذه الأزمات؟

## المبحث الرابع: في الحاجة إلى التصور الفلسفي الإسلامي لفهم الأزمة وتشخيص عناصرها

قارب محمد عزيز الحبابي السؤال الذي أنهينا به الفقرة الأخيرة، من داخل التصور الإسلامي؛ القائم على القصد، حيث يتوقف جزاء الفعل على حضور الرغبة في العمل، والاجتهاد، وما يترتب عنهما من نتائج إيجابية على مستوى حياة الفرد والجماعة<sup>(31)</sup>. كما ناقش مسألة السلوك من منظور نقدي، ينسجم مع المبادئ الكونية للعقل؛ مؤيداً بذلك التصور الكانطي للواجب؛ الذي يرى أن الفعل الحسن

(29) ينظر روسو إلى الملكية بنوع من التشاؤم؛ حيث أدت الحياة في الجماعة إلى تعميق اللامساواة بين البشر بنوعها الطبيعي والفيزيائي، خاصة بعد ظهور الملكية الفردية التي كانت المصدر الأول لمعظم الشرور.

Voir : jean jacques Rousseau ; Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes, un document produit en version Numérique par Jean-Marie Tremblay, publié dans le site web [http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Clas-siques\\_des\\_sciences\\_sociales/index.html](http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Clas-siques_des_sciences_sociales/index.html). P43 et 44

(30) الحبابي، محمد عزيز، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 18.

(31) أحمد بوعود، الأخلاق والإيمان في فلسفة محمد عزيز الحبابي، مرجع سابق ص 55.

فعل حسن في ذاته<sup>(32)</sup>؛ أي: أنه غير مشروط بأي سياق، وغير مقيد بأي غايات نفعية<sup>(33)</sup>؛ حيث يستمد الفعل الأخلاقي قيمته من مقاصده، وغاياته.

وهكذا فإن الفعل الحسن هو فعل ذو عواقبٍ ومآلاتٍ حسنة. إن للاستتباعية ارتباطاً وثيقاً بالنفعية؛ ذلك أن الأخلاق تتحدد طبقاً لما ينتج عن الفعل من منافع ومصالح أو أضرار<sup>(34)</sup>، يتحمل الإنسان نتائجها بحكم انسجامها مع إرادته، وهذا يعني بأن الفعل الحر يؤثر على العالم وعلى الآخرين؛ بحكم أنه يصدر من الذات ويتجه نحو العالم في أبعاده المادية والرمزية والفكرية. ويرى الحبابي في سياق مناقشته لمفهوم الحرية، بأن هذا الأخير يشوبه الكثير من الغموض، لذلك حاول إضاءته من خلال ثلاث مرتكزات أساسية وهي:

- لا توجد حرية، بصفة مطلقة مجردة؛ وهذا يعني أن حرية الإنسان مُقيدة ونسبية.
- لا بُدُّ من تكاملية الحريات.
- لا تفهم أية حرية إلا إذا ارتكزت على معايير تنظمها وتؤطر غاياتها.

وعلى ضوء المرتكزات السالفة، شدّد الحبابي على علاقة الحرية بالمسؤولية، خاصة في المجتمع المعاصر؛ الذي تهيمن فيه التقنية، التي أضحت تطبع تدخل الإنسان في الطبيعة والمجتمع، لذلك تستدعي الضرورة إعادة تعريف مفهوم المسؤولية من خلال النظر إليه في سياق شمولي؛ يهيم مسؤولية الانسان تجاه الآخرين بالاتفاق على بنود العقد الاجتماعي<sup>(35)</sup>، ومسؤولية الإنسان تجاه الطبيعة، بتسويق بنود العقد الطبيعي<sup>(36)</sup>، إلى جانب ترسيخ فكرة المسؤولية الممتدة في الزمن؛ من خلال التضامن مع الأجيال القادمة بالمعنى الذي قاربه جون رولز في كتابه نظرية العدالة<sup>(37)</sup>.

(32) المرجع نفسه، ص56.

(33) يرى كانط بأن الأوامر الأخلاقية القطعية أو المطلقة هي «الأوامر التي تنظر إلى الأفعال لا من حيث النتائج المُنتظرة منها؛ بل تأخذ الأفعال من حيث هي في ذاتها».

Voir : E. Kant, Fondements de la métaphysique des mœurs, trad, Victor Delbos, Librairie Delagrave, Paris 1971.

(34) أحمد بوعود، الأخلاق والإيمان في فلسفة محمد عزيز الحبابي، مرجع سابق، ص57.

(35) voir: Rousseau, J.J: Du contrat social ou Principes du droit politique, une édition produite à partir du texte publié en 1762, éditions Chaaraoui, Casablanca 2014.

(36) voir : M. Serres, Du Contrat Naturel, édition Flammarion 1990.

(37) يرى رولز أنه من الضروري التفكير في إقامة نوع من العدالة بين الأجيال و «من أجل التوصل إلى تحقيق توفير عادل يتعين على الشركاء أن يتساءلوا عن الكمية التي يقبلون بتوفيرها في كل مرحلة من مراحل النمو. مع القبول بأن كل الأجيال مُتفقة على أن توفر) أو أنها وقّرت) بناء على نفس المعيار... وهكذا سيتم توفير مقادير مُختلفة في فترات مُختلفة».

Voir: John Rawls, Théorie de Justice, trad Fr édition Seuil, Paris 1986 P328.



يتصف السياق التاريخي والاجتماعي الذي فكَّر الحبابي في إطاره بكونه مُثخَّنًا بالجراح، ومُثقلًا بنوزاع الانغلاق، والرغبة في الحط من ثقافة الآخر المختلف. سياق تتوفر فيه الملامح الأساسية، لتبلور أطروحة «تفاهة الشر» كما تبنتها حنة أرنت التي انتهت إلى أن «الكائن البشري الأكثر تفاهة يُمكن أن يصير مسؤولاً عن أسوء الفظائع، وليس ضروريًا أن يكون وراءه دافع أو سبب أو حق<sup>(38)</sup>؛ وهذا يعني أن الإنسان يُمكن أن يُقدم على ممارسات ليست لها أية مشروعية أخلاقية أو سياسية أو دينية، وهو ما يؤدي حتمًا إلى وقوع الإنسان في برائن الشر والوحشية. فما هو الحد الفاصل بين الإنساني والوحشي؟ وهل أفعال الإنسان المعاصر مشروطة بيولوجيًا، وسياسيًا، وثقافيًا، أم أنها نتاج لإرادته الحرة والمستقلة؟ إنه إشكال فلسفي مُركب، لا يُمكن الحسم فيه، لكن لا يُمكن التغاضي عنه في نفس الوقت؛ ويمكن أن نُقدم إزاءه انسجامًا مع ما أشار الدكتور أحمد بوعود في كتابه «الأخلاق والإيمان في فلسفة محمد عزيز الحبابي» فرضيتين أساسيتين وهما:

أولًا: إذا افترضنا أن الإنسان حرٌّ، فهذا يعني أنه سيئ وشري، وعدو لذاته وللآخرين، وخصوصًا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار واقع الحروب، والانتهاكات الملازمة لواقع المجتمعات على مر العصور. ثانيًا: وإذا افترضنا أن الإنسان مشروط بيولوجيًا، فهذا يعني أن له طبيعةً شريرةً وقبيحة لا جدوى منها لبناء المدينة العادلة. لذلك ينبغي ترسيخ مبدأ المقاومة الأخلاقية والروحية؛ لتخطي أزمة الضمير الذي أضحى يتأسس على معيار المصلحة.

### المحور الثالث: الفلسفات العربية المادية تحت المجهر

سنخصص الجزء الأول من هذا المحور، للوقوف على النقد الذي وجهه الحبابي لخطاب الفلسفة العربية المادية (المبحث الأول)، على أساس أن نُكِّس الجزء الثاني لكشف تهافت ممارسات هذه الفلسفة، وتناقضها مع الخطاب المثالي الذي تروجه (المبحث الثاني)، بينما سيتوجه اهتمامنا في المبحث الثالث، إلى إبراز الأفق المفتوح للإيمان، بوصفه طاقة خلاقة ومُبدعة من شأنها أن تساهم في أنسنة العالم وتوحيده.

(38) أحمد بوعود، الأخلاق والإيمان في فلسفة محمد عزيز الحبابي، مرجع سابق، ص 58.

## المبحث الأول: نقد الخطاب

قابلت الفلسفات المادية التي بشر بها مثقفو العالم الثالث- المتأثرين بالحضارة الغربية- بين القيم والعلم؛ حيث وضعت القيم في كفة، والتقنيات والعلم والعقل في كفة أخرى، ليس في حالة انسجام وتكامل، وإنما في وضعية تضاد وتناقض؛ تضاد وتناقض يُمكن تبريرهما بالصراع الزائف والمُفتعل بين الدين والعلم. فأضحى كل من استحل عقله هذا الزيف، يُسخر كل عدته المعرفية والمنهجية، لتفنيد الدين والقيم باسم العلمية والتقدمية والعقلانية. فالعقل النظري من منظور هؤلاء، قادر على فهم وتفسير الواقع بشكل مطلق، ولا حاجة له لأسس أخرى من أجل بناء أحكامه حول الإنسان والعالم، فب«اسم الواقعية يرفض البعض القيم والإيمان الذي يُساندها»<sup>(39)</sup>؛ حيث يعتبرون بأن كل ما هو واقعي عقلاني، وأن الكلمة الفصل في الحكم على الواقع ترجع إلى مناهج العلوم الطبيعية<sup>(40)</sup>، وأن صلاحية القيم، ومعقولية الأفعال، لا تقاس إلا بنتائجها الملموسة<sup>(41)</sup>، فالدرائعية «لا تتصور موضوعاً ما إلا حسب ما قد ينتج عنه من آثار عملية»<sup>(42)</sup>؛ إذ تكتسب الحقيقة معاييرها من الواقع، وقيمتها من قدرتها على تحسين شروط عيش الإنسان. يتساقق إلى حد كبير هذا الموقف مع تصور الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس الذي يرى بدوره أن الحقيقة تكتسب هاته الصفة «من خلال العمل الذي تُنجزه، أي: العمل الذي يقتضي أن تتحقق من نفسها بنفسها، ويكون هدفها ونتيجتها التحقق الذاتي؛ كما أنها تكتسب صلاحيتها بإنجازها لعمل يهدف إلى نتيجة تتمثل في إثبات مصداقيتها»<sup>(43)</sup> وطالما ساد هذا الرأي النسبي؛ المبني على نظرية أحادية ونفعية للكون إلا وبخست القيم، وقُلب من شأنها، مما يقتضي إعادة التفكير في طبيعة العقل، وفي إمكاناته وفي حدوده، وفي مفهوم الواقع<sup>(44)</sup> وعناصره. على

(39) الحياي، محمد عزيز، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 49.

(40) لعل ذلك هو الرهان الذي حملته المدرسة الوضعية في علم الاجتماع؛ التي سعت إلى تفسير الظواهر الاجتماعية من خلال استلهام مناهج العلوم التجريبية، وهو الطموح الذي نلمسه في مؤلفات كل من إميل دوركايم وأوغست كونت، وغيرهم من علماء الاجتماع المتشبعين بالفلسفة الوضعية.

يُشدد أوغست كونت على التطابق بين السوسيولوجيا والبيولوجيا بالقول: «إن الاستكشاف العلمي في السوسيولوجيا، شأنها في ذلك شأن البيولوجيا، يستخدم ثلاثة أنماط أساسية... وهي الملاحظة الخالصة، والتجريب الدقيق، وأخيراً المنهج المقارن».

Voir: A.Comte, Philosophie positive, T. IV Leçons 48, Armand colin.

(41) الحياي، أزمة القيم، مصدر سابق ص 50 (بتصرف).

(42) المصدر نفسه، ص 24.

(43) w. James, le pragmatisme, Trad. E. le Brun, éd, Flammarion, 1968, p144.

(44) شغل مفهوم الواقع العديد من الفلاسفة والمفكرين، لعل أبرزهم جان بودريار الذي انهجس بالتفكير في إشكالية موت الواقع في ظل هيمنة التقنية، نقرأ له في هذا السياق قوله: «إذا تحدثنا عن موت الواقع يجب أن نأخذ هذه الفكرة بشكل متناقض، ونتعامل مع هذه الأطروحة كحقيقة. لقد مات الواقع واحتفت المرجعيات، لكن السؤال المطروح من القاتل؟ ومن المقتول ومن =

اعتبار أن «العقل ذاته يتحول في بعض الفلسفات العربية المعاصرة إلى قيمة خرافية، وإلى أعلى مظهر من مظاهر هيمنة الميتافيزيقا»<sup>(45)</sup>.

على هذا الأساس، كشف الفيلسوف/العميد بأن كل تغيير وتجديد مُرتكز إلى هذه والمصادر والبداهيات سيكون مآله الفشل الذريع<sup>(46)</sup>. لذلك تتمثل الخطوة الأولى على درب التحرر من الأزمة بمُختلف مظاهرها في إعمال العقل أولاً؛ أي: في إعادة التفكير في الأزمة وتقويض أسسها الفكرية والإبستمولوجية. فماهية العقل والواقع ليستا كما تصورها الفكرولوجيات المتناسلة من رحم الفلسفة المادية الغربية.

فالعقلانية التي يتشبث الفكرولوجيون العرب بأهدابها «ويحتكمون تحتها هي نفسها إلى مناقشة. فمُطلقية العقلانية، كما في نظرياتهم، تعوق العقل عن أن يعرف وظائفه العملية وحدود حقوله»<sup>(47)</sup>؛ أي: لا تُوفر الشروط المعرفية والعملية ليعبر الإنسان عن طاقاته وعن قيمه الأصيلة؛ التي من شأنها أن تُحقق سعادة الجماعة السياسية. بينما تعبر الواقعية؛ التي يرفعون شعارها عن تبعية عمياء لخطابات الغرب، التي يبتلعها العالم الثالث «بشره ودون تمثيل كاف. فأضحى النقد- الذاتي مجهولاً، وسادت عملية تبذير الطاقات الفكرية هباءً منثوراً، في عالم اللامعقول، حيث يُنسى الواقع فيلتزم كثير من المثقفين الثالثين بالدفاع عن اللاواقع: الإنسان ذي «البعد الأحدث»<sup>(48)</sup> المبتور من البعد الروحي»<sup>(49)</sup>.

= الضحية؟ وما هي نتائج الموت؟ يحتفي الواقع عندما يحقق كل احتمالاته، وعندما يختفي الخيال كذلك. كل هذه المفاهيم الوهم، الخيال، الاختفاء تختزل في صيرورة عملية ترتبط بشكل واسع بالتقنية. بديري في الوقت الحالي الذي أصبحت الحقيقة ترتبط فيه بالأشياء أن يختفي الواقع وينسحب؛ إذ يمر الواقع عبر شبكة معقدة من العلاقات. بحيث إن هناك قوة تعمل على تشويه الواقع وتحاول إهائه بشكل متواصل. لكن لا تستفيد أي جهة من الوضعية التي آل إليها الواقع، لقد وقعت طفرة على مستوى البنيات الاجتماعية والاقتصادية».

Lévy, Elisabeth face à Jean Baudrillard Baudrillard Entretien avec Jean; la disparition du réel.

[http://www.dailymotion.com/video/x9lfpe\\_elisabeth-levy-face-jean-baudrillard\\_creation](http://www.dailymotion.com/video/x9lfpe_elisabeth-levy-face-jean-baudrillard_creation).

(45) عبد الرزاق الدواي، محمد عزيز الحبابي مسار في الفكر والحياة، ضمن كتاب محمد عزيز الحبابي، الشخصية والغدية، مرجع سابق، ص 37.

(46) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 21.

(47) -المصدر نفسه، ص 52.

(48) يبدو أن الحبابي على وعي كبير بقيمة أطروحة هيربرت ماركيز حول «الإنسان ذي البعد الواحد»، التي شدد من خلالها على أن المرض الذي أصاب المجتمعات الصناعية المتقدمة بشقيها الرأسمالي والاشتراكي اسمه «البعد الواحد» انطلاقاً من أن التكنولوجيا في هذه المجتمعات تُعزز وتطور أشكال جديدة ومبتكرة من الرقابة الاجتماعية التي تسحق الإنسان وتحرمه من حريته. وتُسفر هذه الأشكال القمعية عن تحويل الإنسان إلى حيوان مُنتج مُستهلك بالدرجة الأولى، إلى حد أنه يخفق في نفسه كل حاجة غير حاجة الإنتاج والاستهلاك.

(49) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مرجع سابق مصدر سابق، ص 54.

عاب الحبابي على التيارات التي أغفلت الجانب الروحي والإيماني، واعتبرت العقلانية هي الواقع الوحيد؛ مُشيرًا إلى أهمية الواقع الديني ودوره الحاسم في وسم تمثالات الأفراد وممارساتهم، ضاربًا المثال بمسألة الكفاح الوطني المغربي؛ «الذي لا يُعزى إلى المطالب العقلانية، كما أنه من الخطأ تفسيره بالمصالح الآتية وحدها. ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن الإيمان والأخلاق الدينية لعبا دورًا أساسيًا، أولاً في خلق ذلك الكفاح، وثانيًا في تغذيته، إلى أن أثمر أكلهما بتجنيد المشاعر وتوجيه الأفعال نحو مطلب التحرير ثم تحقيق الاستقلال»<sup>(50)</sup>.

## المبحث الثاني: نقد الممارسة

تتخذ مواجهة القيم الشمولية، واستبعادها على مستوى الممارسة، أنماطًا متعددة منها إشاعة ثقافة اللامعنى، والسعي إلى ترسيخ قيم بديلة وثانوية، تركز على أساس الانهيار بالتقنية وتقديسها، والتعاطي بشكل انتهازي مع القيم الشمولية والكونية، بُغية تزييفها وتحريفها؛ إذ قد تتفاخر الفكرولوجيات السائدة وتبجح بالدعوة نظريًا إلى مراعاة القيم، وإلى ضرورة الحرص على تقديرها، لكن هذه الدعوة لا تتجاوز مستوى الخطاب، على اعتبار أنها تنزع في الواقع إلى الحط من قيمتها والاستهتار بها. فتشخيصها للواقع ولسبل التعاطي معه والتفاعل مع متغيراته والسمو به لا يتسم بالموضوعية، وهو ما أكده الحبابي بالقول «فحتى الفلسفات والفكرولوجيات التي تدعي العلمية والموضوعية والعقلانية، وتؤكد أنها منظومات عن الحياة والوجود الشمولي، ترمي إلى تحقيق غايات مُسبقة، وهذا ما قد يحمل في طياته إفراطًا في التعصب»<sup>(51)</sup>، انتصارًا لغايات بعيدة عن ما هو أخلاقي قيمي، متمثلة أساسًا في: علاقات الإنتاج والاستهلاك والشغل، مُتجاهلة الدور الذي ينبغي أن تهض به الثقافة، هذا إذا لم تستثمرها في اتجاه سلبي من خلال إشاعة ثقافة استهلاكية؛ تطغى «علمها الشكليات، وحرص على الجانب الترفيهي... (و) لا تخدم التواصل الوجداني، والاستعداد للترقية من داخل الذات؛ لصالح مجموع الذات»<sup>(52)</sup>، كيف يحصل ذلك في حين أن «المدرسة والجامعة («تصنع») الرجل التقني»<sup>(53)</sup>، وأطر الإنتاج في غفلة عن تكوين الإنسان»، وأي إنسان هذا سيخرجه نظامنا التعليمي؟ وقد «انفلتت

(50) المصدر نفسه، ص 51.

(51) الحبابي، محمد عزيز، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 77، 78.

(52) المصدر نفسه، ص 36.

(53) يتساقق هذا المعنى مع الجواب الذي قدمه عبد الله العروي في كتابه استبانة عن سؤال ما مستوى وعي الشباب المغربي اليوم؟، حيث قال بأن وعي الشباب «عال من الوجهة التقنية، واطئ من الوجهة التاريخية والسياسية».

من البيداغوجية حاسة الاتجاه؛ فعوضاً من الاهتمام بتكوين الشخص ورصد إمكانات التعاون العلمي والتآخي، أصبحت المدرسة تفضل أن تربي في الأطفال قابلية على المنعكسات المشروطة، لتفرض أحياناً لا يتخطى الإدراك لديها مستوى الإشارة الأول»<sup>(54)</sup>.

وللتقليل من حدة هذا الوضع، يجذر على المسؤولين عن النظام التربوي التفكير في «نمو الإنسانية، والحرص على ألا تصبح ماهرة فحسب، بل أن تصبح أكثر خلقية [...] لا بُدَّ من الحرص على التنشئة الخلقية، فينبغي ألا يكون الإنسان مؤهلاً لشتى أنواع الغايات، بل ينبغي أيضاً أن يكتسب إحساساً يجعله لا يختار إلا الغايات الحسنة»<sup>(55)</sup>؛ التي تُحقق الرهانات الخاصة بالفرد والمجتمع في الوقت نفسه. لكن هل يكفي الخطاب النظري الممنهج لبلورة وضعيات وجودية مُنسجمة. وهل الخطاب الفلسفي في السياق العربي تعبير عن الواقع أم تشويه له؟

أشار الحبابي إلى أنه حتى حينما يحدث الاحتفاء ببعض المعاني وترويجها على مستوى الخطاب، يتم تشويهها وتزييفها؛ بحيث يبدو على مستوى الشكل والمظهر أنها تتوخى الرحمة والإصلاح والتجديد إلى ما هو أفضل لحياة الفرد والجماعة، لكنها تنشد في الجوهر التقهقر والانحطاط والتملص من كل القيم الإنسانية النبيلة. باسم الراهنية والتقدم، يستباح كل ما يخالف العرف والعادة والتقاليد، وما يتعارض والقيم الإنسانية، وتبرر أعمال تتبرأ منها الأخلاق، وتضطرب لها النفوس قرفاً واشمئزازاً، ويرفضها الضمير الأخلاقي. غير أن كل ذلك التمويه والتضليل، لن يمنع من كشف عيوب هذه الإيديولوجيات؛ المهافتة والمتمركزة حول نماذج مُفهرسة على معايير العقل الغربي في نُسخته المادية والأداتية.

لقد أخطأت الفلسفة المادية التقدير، وضلت الطريق عندما أعلنت حرباً ضرورياً ضد كل ما هو ديني وروحي؛ حيث اعتقدت أن لها القدرة على اجتثاث القيم الدينية من وجدان الناس، وراهننت على ربط استراتيجياتهم بالأرض وحدها، عوض الارتهان إلى إملاءات السماء؛ إذ وسمت الدين بالخممول، والرجعية، والماضوية، واعتبرته أفيوناً للشعوب، وحملته المسؤولية المباشرة؛ في اغتراب الإنسان واستلابه، فأوقعته في الاستلاب الحقيقي، استلاب الخضوع للآلة. افتتنت بالتكنولوجية إلى حدِّ الهوس، واعتبرتها نبهراً جديداً ينير فكر الإنسان ويؤطر فعله؛ حيث اعتقدت أن الحل التكنولوجي هو الطريق المعبد، والناجع، لحل كل الأعضاء، فلم تعمل سوى على تكبييل الإنسان، وتثبيته في حالة العجز من خلال حثّه على الخضوع لهذا الإله الجديد: «الآلة».

(54) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق ص31.

(55) إيمانويل كانط، ثلاثة نصوص، تأملات في التربية، ما هي الأنوار؟ ما التوجه في التفكير، تعريب وتعليق محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، تونس/صفاقس، الطبعة الأولى، 2005، ص22، 23.

استسلمت دول العالم الثالث، وهي تستفيق من سباتها العميق، وتنهض من كبوتها وخضوعها لوعي إيديولوجي زائف، وعي مُفهرس على ما هو تقني ومادي، على اعتبار أنه يرهن التقدم باستخدام التكنولوجيا، ويجعل من ذلك الحل الأمثل، والحلم المنشود، والنقطة المرجعية للحكم على درجة تنمية، أو انحطاط المجتمعات. فأصبحت تنتقد ذاتها وتقوض قيمها، وتضرب بثقافتها الأصيلة عرض الحائط، وتمارس العنف الرمزي على ثقافتها الضاربة في القدم، وتمجد في مُقابل ذلك التكنولوجيا، وترفع من شأن الحياة المُتمركزة على الاستهلاك. وهو ما يتناقض حسب المُفكر البلجيكي جليبير هوتوا مع الثقافة في صفاءها؛ على اعتبار أن «الثقافة الحقيقية هي دائماً ثقافة رمزية وتقليدية مُتجذرة في تاريخ عريق وفي أمكنة مُحددة. فالتقنية [...] ضد الإنسانية، والحل الوحيد هو الرجوع إلى التقليد، وإلى حضارة الرمز والكلمة»<sup>(56)</sup>؛ التي همشتها هذه المجتمعات، واستعاضت عنها بثقافة استهلاكية زائفة مُتمركزة على التقنية والمادة.

وبعد مرور مدة طويلة استنتجت هذه الدول «أن الإعارة ليست تملكاً. فالذي يشتري الآلات (بل المصانع، والمفتاح في اليد) لا يُسمي مالِكاً للتكنولوجيا، لما وراء الآلات الذي هو الأساس»<sup>(57)</sup>. وهذا معناه أن استيراد المعدات، والخبرات، لا يكفي لامتلاك ناصية التقدم، وأن ثمار هذه التجربة المرة والفاشلة مُتعلقة بغياب التفاعل بين التقنيات المُستحدثة من جهة، وبين ثقافة الإنسان الأصيلة من جهة أخرى، والحال أنه لا يُمكن فصل التحديث عن الحداثة، ولا يستقيم فصل ما هو روحي عما هو مادي جسدي. كل ما كان هنالك، هو مجرد فعل الآلة في الإنسان. لقد طوقت عنق العالم الثالث جدلية؛ متمردة تتناسل منها الأزمات كما تتناسل كريات الدم من بعضها.

## المبحث الثالث: في الحاجة إلى طاقات الإيمان

يرى الحبابي أنه لا سبيل للانفلات من هذه الجدلية المتمردة إذا لم يستعد الإنسان إنسانيته، وينزع عن فكره وذهنه سلطة الذرائعية، والبراغماتية المحضة؛ التي صورته كآلة من خلال الحكم عليه بمدى مردوديته فقط، فجعلته لا يفهم سوى لغة الكمّ والدخل، ولا يهتم سوى بقيم البورصة؛ ولا يراعي سوى قيم القوة.

(56) جليبير هوتوا، «التقنية-علم» ضمن الفلسفة والأخلاقيات، ج. 11، أوديل جاكوب، 2002، ص 54، نقلاً عن أحمد الخالدي وآخرون، كتاب في رحاب الفلسفة للسنة الأولى من سلك البكالوريا، مسلك الآداب والعلوم الإنسانية، منشورات الدار العالمية للكتاب، مكتبة السلام الجديدة، 2006، ص 89.

(57) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 22.

ولن يتحرر الإنسان من إسهاره ما لم يعد النظر في فلسفة القيم؛ فيربط الأفعال بالمقاصد والنيات، وليس بالنتائج المادية فقط. لقد حان الأوان لكي يستعيد الإيمان فعاليته ودوره في الحياة الاجتماعية. فهو وحده الكفيل باحتضان وتنمية القيم الإنسانية الشمولية؛ إذ يشهد الإيمان بأن «للإنسان إمكانات وقدرة على اتخاذ أسى المواقف والقيام بأعظم التضحيات من أجل موافقه. وهذا يعني أن الإيمان شهادة على ميل الإنسان إلى تجاوز الذات نحو الأحسن من منظار قيم تستحق التقدير والإجلال (...)، ومن الواقع المشاهد أيضًا أن الإيمان الصدق، يُعيد للناس الثقة بالنفس، ويُعزز التعاون والإخاء، مما يُحول الإمكانيات الإنسانية إلى متحققات مُجتمعية»<sup>(58)</sup>، وبدونه لن تتجدد تلك القيم في الإنسان وتصبح خاضعة لتقلبات السوق السياسي والاقتصادي. يجري عليها قانون الموضه كأنها سلعة لا غير، وما دامت بمثابة سلعة فلها تاريخ صلاحية محدود. إن «قيمَ اليوم كثيرة الشبه بالموضات، فهي كذلك عابرة، لأنها لم تعد تتجذر في أعماق الإنسان، ولم يبق لها سند متعال»<sup>(59)</sup>، فبدون الإيمان ستبلى تلك القيم بعد أن تدخلها المعاصرة في دوامة التزوير، وتفرغها من محتواها وتستعيز عنها بأخلاقية نفعية شكلية. ويشعر الفيلسوف/العميد بأن «فعاليات الإيمان تصطدم بصور نمطية، تعمي النظر بأفكار مسبقة قاتلة»، تحول دون معرفة حقيقة الدين، والوقوف على أبعاده التنويرية، ودوره في تحصين المجتمع من الأفكار الإيديولوجية المحدودة الأفق، فيستجمع أنفاسه مرة ثانية، لا ليتصدى مرة أخرى لهجوم الفكرولوجيين، بل ليشن الهجوم عليهم. فإذا كان قد ألمح من قبل إلى أن أفق العقلانية المادية محدود وضيق، فهو يُشدد الآن أن «الميتافيزيقا نسق نظري له شرعيته وله إمكاناته في تقدم المعرفة. وإن كل الفلسفات المتعلمنة (Scientistes) باءت بالفشل؛ لأنها أبعدت من حقل التأمل ما ليس بتجريبي وعقلاني»<sup>(60)</sup>. منتقدا النظرة الضيقة التي حصرت الحياة في «الصراع من أجل الإنتاج والاستهلاك، أو من أجل المعرفة والتكنولوجيا»<sup>(61)</sup>. بل هي فضاء تدافع وتفاعل ينميه البعد الروحي، الذي يضيف على ممارسة الأفراد والمجتمعات معاني سامية، تبت فيها الأمل وتزرع فيها الرغبة في الحياة من أجل الذات، ومن أجل الغير في نفس الوقت؛ إذ «إن للحياة الروحية/ الدينية حضورًا مُتحررًا، شاهدًا ومشهودًا (وإن كانت حُججها منطقيًا صماء)، فجدل المُتكلمين لا يُعطي دينامية للإسلام، بل إن دينامية هذا

(58) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 49.

(59) المصدر نفسه، ص 39.

(60) المصدر نفسه، ص 72.

(61) المصدر نفسه، ص 74.

الدين الأساسية وحججه هي الصدق في الحياة. كل فعل يصدر عن المؤمن يلتزم به أمام ضميره (النية الحسنة) وأمام الغير<sup>(62)</sup>؛ ذلك لأن «الفراغ العقائدي انتحار معنوي للشعوب»<sup>(63)</sup>.

لا يتأكد الناس من صفاء إنسانيتهم وصدقها إلا عندما يهدمون كل الحواجز المادية والذهنية؛ التي تحول دون تجسدهم الواقعي لحياتهم في سياق تفاعلهم مع الغير في الفضاء العام، تلك الحرية التي تشترط بالضرورة توفر مطلب المساواة بينهم؛ تلك المساواة التي تُحتمها وتحميها طاعتهم المطلقة لله الواحد الأحد. «فالإيمان بالإنسان ملازم للإيمان بخالقه، وكلا الإيمانيين يتجذر في أعماق المؤمن؛ حتى أضحيا شرطاً لوجود الوعي ولوجود الضمير، أو لما نود تسميته بالضمير الواعي»<sup>(65)</sup> (\*). شرط يجعل من العلاقة بين الإيمان والقيم الإنسانية علاقة تلازم عضوي؛ إذ لا يمكن للقيم أن تنمو وتزدهر بعيداً عن الإيمان باسم هذه الفكرولوجية أو تلك، لكنها لن تكون لها قوة القيم المتغذية من طاقة الإيمان والمعتمدة على فعاليته.

يشرح الدكتور محمد عزيز الحبابي هذا الأمر بعدة عوامل من أبرزها:

- إن القيم لا تبلغ الحد المعياري الفاصل الذي يفرض الاعتراف إلا عندما تظهر محاطة بالبداية وبهيلولة القدسية. فأخلاقية الإسلام تقوم على قدسية تستلزم النية الحسنة<sup>(66)</sup>.
- يجمع الإيمان بين الإحساس الداخلي والسلوك الخارجي؛ إذ «للقيم بنية جوانية. لأن الإيمان ليس مطلق سند لها، بل رقيب ومؤنب، ومرمم، فمنه تكتسب طاقات وحركية دائبة، كما أن للقيم الدينية بنية برانية تبرزها الممارسات. فالدين ليس من طبيعة النوايا فحسب<sup>(67)</sup>؛ بل هو إيمان يصدق العمل؛ وهذا يعني أن «الإسلام إيمان واستقامة» كما ورد في الحديث النبوي الشريف.
- إن الدين يغرس في الكائنات البشرية عناصر خارجة عن حياتها.... ويدخل إضافات في المناخ الوجداني، وحاسة أخلاقية توجه أفعال الشخص كفرد وكعضو من جماعة (الأمة)<sup>(68)</sup>.

(62) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 74.

(63) المصدر نفسه، ص 84.

(\* ) يقصد الحبابي بالضمير الواعي: حاسة هي عند المؤمن شبه "صوت حي داخلي" يوجه سلوكه، بتعاون مع العقل، أو دون مساعدة العقل وقد يتعارض في بعض الحالات مع العقل. إنها قوة تأليفية تتركب من قدرات مختلفة، منها ما وصل العلم إلى معرفته، ومنها من لم يصل بعد إلى تحليله. المرجع نفسه، ص 58.

(65) المصدر نفسه ص 58

(66) المصدر نفسه، ص 77.

(67) المصدر نفسه، ص 79.

(68) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق ص 79.



تقتضي هذه الاعتبارات بأن يكون الإسلام مصدر نظامنا القيمي. فهو الكفيل بإمدادنا باعتبارنا أفراداً وجماعات بقوة التعالي؛ الذي هو مصدر التضحيات والبطولة ونكران الذات. لماذا يستبدله الفكرولوجيون العرب بغيره؟ سؤال طالما طرحه الدكتور الحبابي وحمله كل معاني التعجب والاستغراب. «ما الأفضل منطقيًا وأخلاقيًا، الإحالة على حقيقة ترمي إلى الشمول[؟] وتريد توحيد الإنسانية حول إله أحد، وللجميع بالتساوي، وحول قيم أضحت إيماناً بكرامة الإنسان، أو الإحالة على معطيات تفرق بين الناس طبقاتاً عرقية أو لعنديات لا تساندها أخلاقية ولا بنيات؟»<sup>(69)</sup>.

إن الجواب الذي يقترحه محمد عزيز الحبابي هو أن «الحقيقة كما يراها المسلم، ليست هي حقيقة الرفيق، ولا حقيقة الليبرالي»<sup>(70)</sup>. جواب بسيط وبديهي ينسجم مع اعتبار البدهة معيار الصدق، الصدق المرادف للحقيقة التي لن يغيها الكذب واستراتيجيته المعتمدة على الإيهام. والحقيقة كما يراها المسلم هي أن «الإسلام متأصل في العرب، وبفضله برزوا على مسرح تاريخ الثقافات العالمية والحضارة الإنسانية، ناقلين مُنقحين، ومُبدعين»<sup>(71)</sup>؛ و«أن الإسلام يتربع أعماق معتنقيه في حين ليس للفكرولوجيين المعادين له عمق كاف، قادر على ملء الفراغ» وبالتالي «يلزم السياسيين الواقعيين أن يدخلوا في حساباتهم، بكل تقدير ودقة، هذا الوضع إذا أرادوا استثمار الطاقات الجماهيرية الكامنة»<sup>(72)</sup>. يرى الحبابي في هذا الإطار، أن «للإسلام نظرية عن الإنسان والكون. كما له إمكانات عملية لتنسيق التواجد في مُجتمع بشري يخضع لقيم شمولية؛ قادرة على أنسنة العالم والموجودات»<sup>(73)</sup>.

لا يقتصر إيمان الحبابي على ما هو روعي ديني فقط، بل يتفاهل كذلك بإبداعات العقل والأمال المنشودة على الإنسان، الذي يتوجب عليه أن يسعى إلى «بناء المُستقبل والغد، والغد المؤمل فيه أن يكون أكثر إنسانية وحرية وعدالة»<sup>(74)</sup>. وهو ما الحلم الذي يقتضي توفر مجموعة من القنوات الصريحة والضمنية، منها<sup>(75)</sup>:

- الإيمان بقيم المحبة والتواصل والتعاون والانفتاح.
- الإيمان بأهمية رسالة المثقف في المُجتمع، وبدوره التنويري النهضوي.

(69) المصدر نفسه، ص 80.

(70) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(71) المصدر نفسه، ص 85.

(72) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(73) المصدر نفسه ص 04.

(74) عبد الرزاق الدواي، محمد عزيز الحبابي مسار في الفكر والحياة، مرجع سابق ص 34.

(75) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

- الإيمان بالتقدم، وبإمكانية التحرر التدريجي والارتقاء نحو الأفضل.
- الإيمان بالعقل والعقلانية.
- الإيمان بالقيمة الكبرى للبعد الديني والروحي في حياة الإنسان.

يتضح من خلال القناعات السالفة، أن تحقق سعادة الجماعة السياسية، واستقرارها، لا يُمكن أن يتم بمعزل عن نشر قيم الصداقة، خاصة صداقة الفضيلة مع ترسيخ مبادئ التواصل، والانفتاح، وجعل الغيرية قاعدة أساسية لبناء العلاقات الإنسانية، وهي الرهانات التي ينبغي أن يبنيها المثقف في رسالته، التي ينبغي أن تُساهم في تنوير ونهضة المجتمع. لكن لا تُحقق هذه الرسالة غاياتها في ظل سيادة الأفكار المناقضة للتقدم والرافضة لإبداعات العقل ولكل مظاهر العقلانية.

إن التجربة الوجودية للإنسان، تجربة غنية وشمولية تستمد قيمتها من العناصر المشكلة لها، والتي تتأرجح بين عناصر العقل النظري العلمي؛ المنتج للحقيقة في طبيعتها التصويرية، والمساهم في تقدم العلوم وتطور التقنية، وبين عناصر المكون الإيماني/الروحي، الذي يضيف المعنى على حياة الإنسان ويؤنسها ويخلصها من صوت الغريزة ومن النزعات الأنانية الإقصائية من خلال ترسيخ قيم الصدق والتضامن، ويطبّع المُجتمع على الاعتراف بقيمة الجوانب الروحية ودورها في إضفاء المعنى على حياة الإنسان.

## خاتمة:

ترتبط إشكالية الفلسفة والقيم في متن الحبابي بمفاهيم أخلاقية، وسياسية لها عمق تاريخي ضارب في القدم، لكنها مُنفتحة في نفس الوقت على كل المتغيرات المادية والمعنوية للعصر، لذلك فرضت علينا الإشكالية السالفة ضرورة مقارنة الأسس المفاهيمية؛ التي تبني عليها النظرة الأخلاقية للحبابي من: قيم، وصدق، وفضيلة، وإيمان، وتضامن، وغيرية؛ حيث أعاد الرجل المسألة النظرية لمفهوم القيم في الجزء الأول من كتابه «دفاتر غدوية» من خلال وقوفه عند حُدود المقاربات الأخلاقية المعاصرة، التي قعدت لقيم مُفهرسة على معايير مُغلقة تُساهم في إقصاء الآخر المُختلف في الدين واللون والعرق، وقدمت تبريرات مُتعددة تُسوِّغ انتشار الكذب، وتتطبع معه وتتسامح مع الأنانية وتعتبرها نظيرًا للتطور والتفوق، وتُبرر المزاحمة باسم الحرية.

ويُمكننا الجزم بأن الغاية الأساسية للمواقف الأخلاقية التي بلورها الفيلسوف الشخصاني مُحمد عزيز الحبابي، هي التنظير لمُجتمع يُحقق الانسجام بين الأفراد، بغض النظر عن خلفياتهم المعرفية

والدينية، حيث أقرَّ الحبابي بدور الدين وبأهميته في المجتمع، وأكد على تكامله مع العلم والعقلانية، كما راهن على أنسنة العالم واعتبر أن الشروط اللازمة لتحقيق ذلك المبتغى هي القضاء على « كل ما يسهم في جعل الإنسان ذئبًا أمام الإنسان، فعلى الجميع، مهما اختلفت الديانات والفكرولوجيات، والأجناس، والألوان، والألسنة، والثقافات، أن يعمل على أن يكون الإنسان أخًا للإنسان، فبدون ذلك، لا حضارة، ولا قيم شمولية، ولا إيمانًا خالصًا، ولا معرفة نافعة، فلن ينتصر الإنسان على الأزمات إلا عندما يقضي على مجتمع الذئاب»<sup>(76)</sup>.

وعلى ضوء ما تمت مناقشته في هذه الورقة، لا بُدَّ من تسجيل بعض الخلاصات؛ التي من شأنها أن تكون مُنطلقًا لبحوث مستقلة حول «مفهوم القيم في الفكر الفلسفي الإسلامي»، ويُمكن إيجاز أهم الخلاصات، التي توصلنا إليها في هذه الورقة في النقاط التالية:

- للأزمات الأخلاقية المعاصرة عدة مظاهر؛ فردية، وجماعية.
- يعيش المجتمع المعاصر على وضع مفارقة صادمة، يحكم تطور شروط عيشه المادية، وانحصار مقوماته الرمزية والروحية.
- حثَّ الحبابي على ضرورة تجاوز النزعات التجزيئية المُفتعلة للثنائيات بين الثقافات.
- إلحاح الحبابي على ضرورة إعادة الاعتبار للقيم الإنسانية النبيلة، وجعلها الأساس الذي تهل منه مجمل ممارسات الإنسان.
- التحريض على ضرورة تقدير القيم، وتثمينها، وترسيخها على مستوى الخطاب والممارسة.
- لا يمكن القضاء على أزمة القيم، دون امتلاك مقومات تشخيصها.
- للإيمان دور أساسي في حياة الإنسان؛ فهو وحده الكفيل باحتضان القيم الإنسانية الشمولية وتنميتها.
- في غياب الإيمان لن تتجذر القيم الإنسانية النبيلة، وستظل خاضعة لتقلبات السوق السياسي والاقتصادي.
- الإيمان بالخالق مُلّازم للإيمان بالإنسانية.

(76) محمد عزيز الحبابي، أزمة القيم، مصدر سابق، ص 86.

## قائمة المصادر والمراجع:

- أوزي، أحمد وآخرون، المعجم الفلسفي للمتعلمين والمتعلمات بالتعليم الثانوي، منشورات مجلة علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 2018.
- بوعود، أحمد، الأخلاق والإيمان في فلسفة محمد عزيز الحبابي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2021.
- بورقية، رحمة وآخرون، التقرير لتركيبى للبحث الوطني حول القيم، 50 سنة من التنمية البشرية RDH5، الرباط، 2006.
- بودون رايمون وبوريكو فرانسوا، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة الدكتور سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، منشورات مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 2007.
- الجابري، محمد عابد وآخرون، دراسات مغربية مُهداة إلى المُفكر المغربي محمد عزيز الحبابي، منشورات جمعية البحث في الآداب والعلوم الإنسانية، المركز الثقافي العربي، طبعة مزيدة ومنقحة، 1987.
- الحبابي، محمد عزيز، دفاتر غدوية، الدفتر الأول، أزمة القيم، منشورات، دار المعارف، القاهرة، 1991.
- سبيلا، محمد وآخرون، موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، منشورات المتوسط، ميلانو/إيطاليا، ط1، 2017.
- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط1، 1973.
- كانط، إيمانويل، ثلاثة نصوص، تأملات في التربية، ما هي الأنوار؟ ما التوجه في التفكير، تعريب وتعليق محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2005.
- كمال، عبد اللطيف وآخرون، محمد عزيز الحبابي الشخصية والغدية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2015.

## Arabic References:

- Ūzī, Aḥmad wa-ākharūn, Al-Mu‘jam al-falsafī lil-muta‘allimīn wālmṭ‘lmat bi-al-ta‘līm al-thānawī, Manshūrāt Majallat ‘ulūm al-Tarbiyah, Maṭba‘at al-Najāḥ al-Jadīdah, al-Maghrib, st1, 2018.
- Bū‘ūd, Aḥmad, Al-Akhlāq wa-al-īmān fī Falsafat Muḥammad ‘Azīz al-Ḥabbābī, Dār al-Thaqāfah lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, al-Dār al-Bayḍā‘, st1, 2021.
- Būruqayyah, Raḥmah wa-ākharūn, al-Taqrīr ltrkyby lil-Baḥṭh al-Waṭanī ḥawla al-Qayyim, 50 sanat min al-tanmiyah alshrytRDH5, al-Rabāt, 2006.
- Bwdwn rāymwn bwrykw Frānswā, Al-Mu‘jam al-naqdī li-‘Ilm al-ijtimā‘, tr. al-Duktūr Salīm Ḥaddād, Dīwān al-Maṭbū‘āt al-Jāmi‘iyah, Manshūrāt Majd al-Mu‘assasah al-Jāmi‘iyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr wa-al-Tawzī‘, st2, 2007.
- Al-Jābirī, Muḥammad ‘Ābid wa-ākharūn, Dirāsāt Maghribiyah muhdāh ilā almufkr al-Maghribī Muḥammad ‘Azīz al-Ḥabbābī, Manshūrāt Jam‘iyat al-Baḥṭh fī al-Ādāb wa-al-‘Ulūm al-Insānīyah, al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, Ṭab‘ah mazīdah wa-munaqqāḥah, 1987.
- Sabīlā, Muḥammad wa-ākharūn, Mawsū‘at al-mafāhīm al-asāsīyah fī al-‘Ulūm al-Insānīyah wa-al-falsafah, Manshūrāt al-Mutawassiṭ, mylānw / Īṭāliyā, st1, 2017.
- Ṣalībā, Jamīl, Almu‘jm al-Falsafī bāl’lfāz al-‘Arabīyah wa-al-Faransīyah wa-al-Injlīzīyah wallātynyh, Dār al-Kitāb al-Lubnānī, Bayrūt st1, 1973.
- Kant, Immanuel, Thalāthat nuṣūṣ, Ta‘ammulāt fī al-Tarbiyah, mā hiya al-anwār? mā al-tawajjuh fī al-tafkīr, ta‘rīb wa-ta‘līq Maḥmūd ibn Jamā‘at, Dār Muḥammad ‘Alī lil-Nashr Tūnis, st1, 2005.
- Kamāl, ‘Abd al-Laṭīf wa-ākharūn, Muḥammad ‘Azīz al-Ḥabbābī al-Shakhṣānīyah wālgh-dyh, al-Markaz al-‘Arabī lil-Abḥāth wa-dirāsāt al-Siyāsāt, Bayrūt, st1, 2015.

## المراجع بالإنجليزية:

- E. Kant, Fondements de la métaphysique des mœurs, trad, Victor Delbos, Librairie Delagrave, Paris1971.
- Jean Pierre Aubin, Dictionnaire encyclopédique de l'éducation et de la formation, Nathan université, Paris 1981.
- Jean jacques Rousseau ; Discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes, un document produit en version Numérique par Jean-Marie Tremblay, publié dans le site web [http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Classiques\\_des\\_sciences\\_sociales/index.html](http://www.uqac.quebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html)